التنمية المستدامة في المنظور الاسلامي (إحياء الارض الموات أنموذجاً)

د. أمل كاظم زوير / قسم علوم القرآن الكريم

وضعت منظمة الأمم المتحدة، مجموعة من 17 هدفاً في خطة التنمية المستدامة لعام 2030، وقد غطت تلك الأهداف مجموعة واسعة من قضايا التنمية الاجتماعية والاقتصادية (الفقر – الجوع – الصحة – التعليم – تغير المناخ – المساواة بين الجنسين – المياه – الصرف الصحي – الطاقة – البيئة – العدالة الاجتماعية. وقد تعددت تعريفات التنمية المستدامة، ومن أهم تلك التعريفات وأوسعها انتشارا الذي عرف التنمية المستدامة بأنها : " **التنمية التي تلبي احتياجات الجيل الحاضر دون التضحية أو الإضرار بقدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها.**"

ورغم الاهتمام بالتنمية في الدول الغربية إلا أنها تنمية عاشت حبيسة الماديات وتعظيم الربحية للمنتج والمنفعة للمستهلك مع إهمال الجوانب الروحية .

والرؤية التنموية تنبعث في الإسلام من قضية الاستخلاف وفلسفته في العلاقة بين الإنسان والكون ومالكهما رب العالمين. وهو مفهوم يجمع بين التنمية الروحية والمادية ويُعلي من شأن النفس الإنسانية، ويضعها موضع التكريم اللائق بها، والذي يُمَكِّنها من أداء دورها في تعمير الكون وتحقيق العبودية الخالصة لخالق هذا الكون وحده. قال تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة" (البقرة: 30)، وقال تعالى: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) (هود:61) .

إن مفهوم التنمية في الإسلام يتجاوز المنظور المادي وتحقيق الرفاهية القائمة على إشباع متطلبات الجسد، ويمتد إلى طلبات الروح والعقل التي لا تقل عن الناحية المادية في الحياة. وفي الإسلام تهدف التنمية بصفة أساسية إلى تحقيق الأمن المادي من الجوع والأمن المعنوي من الخوف .

قال تعالى : "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ" (قريش: 3-4). فالإسلام يريد من خلال عملية التنمية توفير الحياة الطيبة الكريمة لكل إنسان قال تعالى : "مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" (النحل: 97).. ، حياة توازن بين منافع الأجيال الحالية والأجيال المستقبلية. وبذلك سبق الإسلام تعريف وتطبيق التنمية المستدامة قبل أن يعرفها الغرب بعشرات القرون، فالأجيال القادمة في المنهج الإسلامي لها حق في ثروات الأجيال الحاضرة. وتطبيقا لذلك حث الإسلام الآباء على ترك أولادهم أغنياء لا فقراء، ففي الحديث الشريف "إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس" (رواه البخاري)، "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" (رواه مسلم).

ويشير القرآن الكريم إلى الترابط بين الأجيال في صورة من التراحم والتعاطف في قوله تعالى: "والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان" (الحشر: 10) ولقد استند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – على هذه الآية في عدم تقسيم أراضي العراق على الجنود الفاتحين، بل فرض عليها الخراج لمصلحة الأجيال المتعاقبة وقال لمن خلفه: "تريدون أن يأتي آخر الزمان ناس ليس لهم شيء؟ فما لمن بعدكم؟ ."

إن الإسلام بقدر حرصه على تحقيق النفع للأجيال الحالية فإنه يضع نصب عينيه منافع الأجيال القادمة، ومن ثم يجعل من التنمية المستدامة واقعا عمليا ملموسا، فتكون الأمة على مر العصور حلقات متماسكة يعمل أولها لخير آخرها، ويغرس سلفها ليجني خلفها، ويعمل خلفها على نهج سلفها .

أولاً :التنمية المستدامة كمفهوم متأصل في الإسلام

مفهوم التنمية المستدامة ليس جديداً على الإسلام والمسلمين، فقد حفل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالعديد من النصوص التي تمثل الركائز الأساسية للتنمية المستدامة، وتضع الضوابط التي تحكم علاقة الإنسان بالمجتمع والبيئة والاقتصاد.

ومن هنا فإن التنمية المستدامة في المنظور الإسلامي لا تجعل الإنسان نداً للطبيعة، ولا متسلطاً عليها، بل تجعله أميناً عليها، محسناً لها، رفيقاً بها وبعناصرها، يأخذ منها بقدر حاجته وحاجة من يعولهم، بدون إسراف، وبلا إفراط ولا تفريط .

ولعل من أهم الدلائل المؤكدة على تأصل مفهوم الاستدامة في الإسلام الآتي:

1- دلائل من القرآن الكريم:

– قال الحق سبحانه وتعالى: (وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) الحشر10. «وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً». ولا شك أن انتقال الحب والمنفعة وعدم نشوء الغل بين الأجيال، إنما يتطلب أن يترك الجيل السابق للجيل اللاحق كل مقومات الخير، بما فيها بقاء الموارد الحياتية صالحة للانتفاع بها.

– قال تعالى: (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) الحديد7، ومما جاء في تفسير القرطبي عن معنى (مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ): «دليل على أن أصل الملك لله سبحانه، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذي يرضي الله فيثيبه على ذلك بالجنة.

... (مستخلفين فيه) بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم. وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النواب والوكلاء،. وفي كل ذلك إقرار بأن الموارد تنتقل كوريثة بين الأجيال، ومن ثم يلزم على كل جيل عند الانتفاع من هذه الوريثة أن يحرص على صيانتها لتكون نافعة للجيل الذي يليه.

– قال تعالى (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) هود61، ومعنى استعمركم فيها طلب منكم أن تعمروها، وعمارة الأرض إنما تتم بالزراعة والبناء والإحياء والإصلاح والبعد عن كل فساد، وبالجمع بين الاستخلاف والإعمار يتضح بقوة مفهوم الاستدامة، من حيث إن كل الأجيال المتعاقبة مطالبة في كل زمان ومكان بإعمار الارض وتنميتها.

– على الرغم من أن الإسلام يقر بالتفاوت المنضبط بين الناس في الدخول والثروات والمهارات، ولكنه لا يقر بانحصار الدخول والثروات في فئة وحرمان أخرى، وذلك ليضمن تداول المال قال تعالى : (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) الحشر7.

– إن الإسراف والفساد محرم في القرآن الكريم، جاء في قوله سبحانه وتعالى: (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) القصص77، وقال سبحانه: (وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ) البقرة205، ويمثل ذلك من المقومات الأساسية للحفاظ على استدامة الموارد وسبل العيش.

2– دلائل من السنة النبوية:

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَغْرِسْهَا) ، ويحض هذا الحديث المسلمين بقوة على الاستمرار في إنتاج الطيبات وما ينفع الناس دون التوقف، ومهما كانت

الأسباب، وبما يجعل جيل الأبناء يستفيد من ثمار ما أنتجه جيل الآباء، والذي استفاد بدوره من جيل الأجداد.

– نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسراف في استخدام مورد الماء حتى عند الوضوء، جاء في الحديث الشريف أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَقَالَ «مَا هَذَا السَّرَفُ» فَقَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ؟ قَالَ «نَعَمْ وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَار» . يضع هذا الحديث الشريف قاعدة أساسية في الحفاظ على استدامة الموارد المائية، وفيه إشارة بوجوب الحفاظ على الموارد الطبيعية وترشيد استخدامها حتى ولو كانت متوفرة بكميات كبيرة، وبالطبع فإن الموارد كلما كانت شحيحة فهي أولى بالحفظ.

نماذج من التنمية المستدامة وفق المنظور الاسلامي : (احياء الارض الموات).

تشكل الأحاديث النبوية الشريفة التي تدرج عند الفقهاء في باب (إحياء الموات) دافعاً قوياً نحو تحقيق التنمية المستدامة، لكونها اختصت في تحفيز الأفراد على العمل على إحياء الأرض الموات، وذلك من خلال منح حوافز دنيوية وأخروية. ومن أمثلتها: « مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ» ، « مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقّ بها » ، نجد هذه الأحاديث ولغرض تحفيز الأفراد بالدأب على إحياء الأرض الموات، وتناغماً مع دافع فطري قوي في نفس الإنسان وهو حب التملك، أقرت بملكية الأرض لمن يحييها وما في ذلك من دور في تحريك الهمة وتقوية النشاط في توسيع واستمرارية دائرة الإحياء والعمران للأرض.

وتعريفه : " الموات ما لا ينتفع به من الأراضي لانقطاع الماء عنه أو لغلبة الماء عليه أو ما أشبه ذلك مما يمنع الزراعة" سمي بذلك لبطلان الانتفاع به.

– لم يعط الرسول صلى الله عليه وسلم مبرراً لأي شخص أن يوقف عجلة التنمية أو أن يحجز مورداً دون أن يستفيد منه المجتمع. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا فَإِنْ عَجَزَ عَنْهَا فَلْيُزْرِعْهَا أَخَاه ». فإذا عجز فرد عن زراعة أرضه، فلا يسمح له بتركها خارج إطار عملية التنمية، وإنما تمنح لفرد آخر ممن هو قادر على الزراعة. وفي ذلك حث المزارعين على عدم إهمال أراضيهم.

واحياء الموات في الشريعة الإسلامية، هو استصلاح الأراضي الموات البعيدة عن العامر وجعلها صالحة للزراعة، وحكمها لمن أحياها . لحديث النبي ﷺ: « مَن أحيا أرضًا ميتة، فهي له»، وقوله ﷺ: «مَن عمَّر أرضًا ليست لأحد، فهو أحق بها»، وقد اتَّفق الفقهاء على أن الأرض التي لم يملكها أحد، ولم يوجد فيها أثرُ عمارة وانتفاع تُملك بالإحياء. واتفقوا على أن الأرض التي لها مالك معروف بشراء أو عطية لم ينقطع ملكه لا يجوز إحياؤها لأحد غير أصحابها. أما عن إحياء الموات فقد قال الأحناف يكون بالبناء، أو الغرس، أو الكرب (قلبها بالحرث) أو إقامة المسناة (السد) أو التحويط، أو السقاية؛ والمالكية قالوا إن الإحياء يكون بالبناء، والغرس، والزراعة، والحرث، وإجراء المياه، وغيرها؛ وقال الشافعية: الإحياء الذي يملك به يختلف بحسب الغرض المقصود من الأرض، ويُرجَع فيه إلى العُرْف، فإن أراد إحياء الموات مسكنًا اشترط تحويط البقعة بآجُرٍّ أو قصب بحسب عادة ذلك المكان، وهكذا؛ وقال الحنابلة: إحياء الأرض أن يحوط عليها حائطًا منيعًا، سواء أرادها للبناء أو الزرع أو حظيرة للغنم؛ لقوله ﷺ: «من أحاط حائطًا على أرض، فهي له».

<u>شروط الأرض المحياة :</u> ألا تكون الأرض مِلكًا لأحد.

ألا تكون مرتفقًا بها؛ أي: مستعملة ارتفاقًا لأهل البلدة؛ كمحتطب، أو مرعى، أو نادٍ يجتمع فيه للتحدث، ومركض للخيل أو مرآب ونحوه.

شروط الإحياء الذي يثبت به الملك

إذن الإمام: وقد اشترط أبو حنيفة: بأن يكون الإحياء بإذن الإمام؛ لحديث: «ليس للمرء إلا ما طابت به نفس إمامه». وقال المالكية: إذا كانت قريبةً من العمران، احتاج إحياؤها إلى إذن الإمام بخلاف البعيدة من العمران، والجمهور على مَن أحيا أرضًا تملَّكها، وإن لم يأذن له فيها الإمام، اكتفاءً بإذن رسول الله ﷺ: «مَن أحيا أرضًا ميتة، فهي له».

المدة: واشترط جمهور الفقهاء أن يتم الإحياء في حالة التحجير (يعيني أن يحوطها بحجارة علامات لأرضه) خلال مدة **أقصاها ثلاث سنين**؛ لقول عمر رضي الله عنه: « ليس لمتحجرٍ بعد ثلاث سنين حق». ولأن التحجير ليس بإحياء ليملكه به؛ لأن الإحياء إنما هو العمارة والتحجير الإعلام .

المصادر :

1. https://arabi21.com التنمية المستدامة من منظور إسلامي .
2. https://www.aliqtisadalislami.net مجلة الاقتصاد الاسلامي
3. الهداية في شرح بداية المبتدي- المؤلف: علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني المرغيناني، أبو الحسن برهان الدين (المتوفى: 593هـ)- المحقق: طلال يوسف (384/4) .
4. مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر- عبد الرحمن بن محمد بن سليمان المدعو بشيخي زاده, يعرف بداماد أفندي (المتوفى: 1078هـ)- دار إحياء التراث العربي(559/2) .